

المحاضرة السادسة

النثر في التراث النقدي

الأستاذان: - داود امحمد

- زروقي عبد القادر

جاء في لسان العرب: "النَّثْرُ نَثْرَكَ الشَّيْءُ بِيَدِكَ تَرْمِي بِهِ مُتَفَرِّقًا مِثْلَ نَثْرِ الْجَوْزِ وَاللَّوْزِ وَالسُّكَّرِ، وَكَذَلِكَ نَثْرُ الْحَبِّ إِذَا بُذِرَ، وَهُوَ النِّثَارُ؛ وَقَدْ نَثَرَهُ يَنْثُرُهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرًا وَنَثَارًا وَنَثَرَهُ فَاثْتَنَرَتْ وَتَنَاثَرَ؛ وَالنُّثَارَةُ: مَا تَنَاثَرَ مِنْهُ" وجاء في القاموس المحيط: " نَثَرَ الشَّيْءَ يَنْثُرُهُ وَيَنْثُرُهُ نَثْرًا وَنَثَارًا: رَمَاهُ مُتَفَرِّقًا. كَنَثَرَهُ فَاثْتَنَرَتْ وَتَنَاثَرَ وَتَنَاثَرَ. " وهذا يكون النثر يدل على عدم الانتظام وعلى التفرق والتبعثر، ليطلق بذلك على الكلام المتفرق وقد شبه ابن رشيق اللفظ بالدريكون منشورا أو منظوما، يقول: "ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منشورا لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب".

هذا من حيث الدلالة اللغوية للنثر أما اصطلاحا فنذكر قول شوقي ضيف:

النثر هو الكلام الذي لم ينظم في أوزان وقواف وهو على ضربين:

✓ الضرب الأول فهو النثر العادي الذي يقال في لغة التخاطب، وليست لهذا الضرب قيمة أدبية إلا ما يجري فيه أحيانا من أمثال وحكم.

✓ الضرب الثاني فهو النثر الفني الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة، وهذا الضرب هو الذي يعنى النقاد ببحثه ودراسته وبيان ما مر به من أحداث وأطوار وهو يتفرع إلى جدولين كبيرين هما الخطابة والكتابة الفنية وهي تشمل القصص المكتوبة كما تشمل الرسائل الأدبية وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة.

(الفن ومذاهبه في النثر العربي ص15)

نقد النثر: مما يلاحظ أن النقاد العرب لم يعطوا للنثر ما أعطوه للشعر من عناية، فالشعر أكثر حظا عند العرب من النثر من حيث العناية به وحفظه ودراسته، يقول زكي مبارك: "نستطيع

أن نجزم بأن الشعراء الكبار الذين شغل بهم الناس كانوا سببا في نشاط النقد الأدبي وإمداده بتلك الحيوية العظيمة التي ظهر أثرها في مؤلفات أبي هلال وابن الأثير وابن رشيق والجرجاني وغيرهم من فحول النقد الذين شغلوا بالموازنة بين الشعراء، ولكن قل أن نجد أثرا لمثل ذلك الاهتمام إذا شئنا أن نعرف ما صنع النقد في الموازنة بين كاتبين كالبديع والخوارزمي أو عبد الحميد وابن المقفع وغيرهم من الكتاب الذين شغلوا معاصريهم"

(النثر الفني في القرن الرابع، زكي مبارك18)

فمما يذكر أن أبا بكر الخوارزمي كان يحفظ خمسين ألف بيت من الشعر ولم يعرف عنه أنه اهتم بحفظ الرسائل غير رسالة واحدة كتبها صاحب بن عباد إلى ابن العميد. وهذا مظهر من مظاهر إثارة الشعر على النثر، إذ أن الشعر أقرب إلى النفس، وهو بالذاكرة أعلق وعلى الألسنة أيسر بفضل الوزن والقافية.

المفاضلة بين النثر والشعر:

يرى الثعالبي أن: "طبقات الكتاب أرفع من طبقات الشعراء، فإن الكتاب وهم ألسنة الملوك إنما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغر أو عمارة بلاد أو إصلاح فساد أو تحريض على الجهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء إلى ألفة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية في رزية أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ومعظم الشؤون التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة"

ثم يقول عن الشعراء:

"والشعراء إنما أغراضهم التي يرتمون نحوها، وغاياتهم التي يجرون إليها، وصف الديار والآثار، والحنين إلى الأهواء والأوطار، والتشبيب بالنساء، والطلب والاجتداء، والمدح والهجاء. فليس يجرون مع أولئك في مضمار، ولا يقاربونهم في الاقتدار"

فهو ينوه بفضل النثر على المصالح المعاشية والسياسية والإدارية، لأن النثر هو الأداة الصالحة لتفاهم في شؤون السلم والحرب والتجارة والزراعة والصناعة وما إلى ذلك من شؤون العمران.

ومن أسباب تفضيله للنثر على الشعر أن الأنبياء لا يقولون الشعر والملوك يترفعون عنه.

أما ابن رشيق فيفضل الشعر على النثر، ويذكر أن كلام العرب نوعان منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديدة، وإذا اتفقت الطبقتان في القدر وتساوتا في القيمة ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة.

يقول ابن رشيق: "وكلام العرب نوعان: منظوم، ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديدة، فإذا اتفق الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، ولم يكن لإحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً في التسمية؛ لأن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به في الباب الذي له كسب، ومن أجله انتخب؛ وإن كان أعلى قدراً وأعلى ثمناً، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد في الأسماع، وتدحرج عن الطباع، ... فإذا أخذه سلك الوزن، وعقد القافية؛ تألفت أشتاته، وازدوجت فرائده وبناته، واتخذ اللابس جمالاً، والمدخر مالملاً فصار قرطة الأذان، وقلائد الأعناق، وأمانى النفوس، وأكاليل الرؤوس، يقلب بالألسن، ويخبأ في القلوب، مصوناً باللب، ممنوعاً من السرقة والغصب".

وعند أبي هلال: الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل، فالفاظ الخطباء تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعفوية، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ولا فرق بينهما إلا أن الخطبة يشافه بها الرسالة يكتب بها والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة ولا يتهيأ مثل ذلك في الشعر من سرعة قلبه وإحالاته إلى رسائل إلا بتكلف وكذلك الرسالة والخطبة لا يجعلان شعراً إلا بمشقة

أبو هلال العسكري: التشاكل بين الرسالة والخطبة كلاهما: كلام لا يلحقه وزن ولا قافية

كلاهما: يتكون من ألفاظ وفواصل تتشابه ألفاظهما، في سهولتها وعذوبتها

الخطب تلقى مشافهة (يشافه بها)

■ الرسائل يكتب بها

■ يمكن جعل الرسالة خطبة

- يمكن جعل الخطبة رسالة
- لا يمكن جعل الرسالة شعرا
- لا يمكن جعل الخطبة شعرا

وعند أبي هلال النثر عليه مدار السلطان والشعر يغلب عليه الزور والبهتان وليس يراد من الشاعر إلا حسن الكلام أما الصدق يطلب من الأنبياء.

في تراثنا العربي نجد كُتّابا كان شعرهم أجود من نثرهم وكانوا متفوقين في الصناعتين منهم:

1- أبو العلاء المعري صاحب اللزوميات سقط الزند وهما من دواوين الشعر الممتازة، ورسالة الغفران التي تعد من آيات النثر العربي.

2- الشريف الرضي وهو من الشعراء الأفاضل وإليه ينسب جزء كبير من نهج البلاغة.

3- أبو عامر بن شهيد أجاد في النثر والشعر وغلب عليه الشعر.

وهناك كتاب غلب عليهم النثر ولهم شعر جيد منهم:

- علي بن عبد العزيز الجرجاني
- أبو بكر الخوارزمي
- أبو الفضل بن العميد
- أبو إسحاق الصابي
- بديع الزمان الهمذاني
- أبو إسحاق الحصري
- (أبو منصور الثعالبي: يتيمة الدهر، أبو بكر الخوارزمي: نثر النظم وحل العقد)